الدين وحوار الحضارات في فكر مالك بن نبي

د. إسماعيل زروخي
جامعة منتوري ـ قسنطينة

أولا: المقدمة:

نود في هذا البحث التعرض إلى مساهمة قطب من أقطاب الفكر الجزائري المعاصر، في الفكر والحضارة الإنسانية، لا على مستوى العالم العربي الإسلامي، فحسب، بل وعلى المستوى العالمي أيضا، ونقصد بذلك ما قدمه مالك بن نبي للحضارة الإنسانية، الذي أبرز من خلال مؤلفاته العديدة والمتعددة والمتنوعة، مختلف العوامل والأسباب المؤدية إلى بناء الحضارة وازدهارها، وإلى عوامل أفولها وانهيارها، و لا يمكن اعتبار بن نبي من هذه الرؤية هو طفرة جديدة في الحضارة التي نشأ في ظلها وتشبع بروحها، وأعني الحضارة العربية الإسلامية، وإنما هو حلقة من حلقاتها التي لربما خفت نورها منذ أمد بعيد، ولكنها حضارة تشهد مآثرها في مختلف الميادين، والقارات، على أنها أدت إلى اعتراف خصومها بها قبل الموالين لها.

ولقد كان ابن نبي رجلا عمليا ــ ربما لكونه درس الهندسة ــ اهتم بالحضارة الحديثة حتى عدّ المفكر العربي الوحيد الذي اعتنى بمنظومة الحضارة بعد ابن خلدون، بالرغم من أن الهوة الزمنية بينهما طويلة. غير أنه تميز عنه في أنه استطاع أن يطلع على الحضارة الغربية والإسلامية معا، ولم تستطع الأولى أن تسلب نظره وفكره، رغم مظاهرها البراقة. إذ بقي ابن نبي وفيا لتراثه الإسلامي وأصوله. ومن ثم كان يعتبر أن المشكلة التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، أو أي شعب آخر، هي مشكلة حضارية، ولذلك كان يعتقد أن أي حل لها لا يتم إلا إذا ارتفع الشعب

بفكره، ووعيه إلى مستوى الأحداث الإنسانية، وتعمق في إدراك وفهم العوامل التي تؤسس الحضارات، وتقوم بهدمها.

تلك هي الفكرة الأساسية التي انطلق منها ابن نبي في دراساته الحضارية، ومن ثمة كان يرى أن الحل الأساسي لكل القضايا والمشاكل التي يتخبط فيها أي شعب، إنما يكمن في روح الأمة ذاتها، لأنه يستحيل حسبه أن تبنى حضارة بشراء أدواتها ووسائلها وإنما لابد لها أن تخلق هي ذاتها أدواتها ومنتجاتها، لأن الحضارة بناء، وليست مجرد استهلاك، وعليه فإننا سنحاول في هذا البحث إبراز واستعراض أفكار ونصوص ابن نبي في هذا الميدان حتى نترك نصوصها ذاتها تتحدث عن نفسها.

وقد حدد مالك بن نبي عناصر أية حضارة في ثلاثة أركان، وهي: الإنسان، التراب، الزمن. ومن هذه العناصر يتبين أنه لا وجود للحضارة خارج المجتمعات البشرية، لأن الحضارة ظاهرة اجتماعية يتميز بها الكائن البشري، دون سواه من الكائنات، ولذلك يؤكد ابن نبي على ضرورة التواصل الحضاري بين الأمم، لأنه هو وحده الذي يحقق الرفاهية والسعادة الإنسانية، ولا يتم ذلك إلا في إطار التسامح والتعاون، الذي تحترم فيه الأمم بعضها بعضا، ولذلك فإننا سنركز محور موضوعنا هذا على أهم العناصر التي ارتأى من خلالها ابن نبي بناء هذا التواصل الحضاري.

ثانيا: الحضارة:

نحاول في هذا العنصر إبراز موقف مالك بن نبي من الحضارة، ومن العناصر المؤسسة لها، مبتعدين قدر المستطاع عن المعاني الاصطلاحية وضبطها إلا ما كان يخدم الهدف من بحثنا، لأن هدفنا العام هو التعرض إلى آراء بن نبي التي يتشكل على ضوئها التفاعل والحوار الحضاري بين الأمم، على اعتبار أن الحضارة هي ذلك التقدم العقلي والمادي معا، وهي ذات طابع اجتماعي، إنساني[1]. لأنها تتعلق بتطوير

---

[1] ـــ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص477.

الإنسان لمجموع الشروط المادية والثقافية التي يعيشها، ومن ثم فهي عبارة عن مجموعة الخصائص المرتبطة بحياته الاجتماعية والأخلاقية و السياسية و الثقافية[1]. ونحن نعتقد أن من بين المحاولات الأولى التي تناولت الموضوع بإسهاب هي محاولات ابن خلدون، التي شكلت البناء الأولي في فكر ابن نبي ـــ على وجه الخصوص ـــ في حديثه عن الحضارة، ويحدد ابن خلدون الحضارة، بقوله، هي: تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المترل وأحواله[2]، ولذلك كانت هذه المظاهر الحضارية تنتقل من أمة لأخرى، تقلدها فيها، وهذا، كما يؤكد ابن خلدون، ما وقع للعرب عند احتكاكهم بالأمم السابقة، كالفرس والروم، وما وقع لكثير من الأمم الأخرى في صيرورتها التاريخية، ومن هنا يصعب علينا من الناحية الاصطلاحية الفصل بين مصطلح الحضارة، وباقي المصطلحات الأخرى، المشابهة له، كالنهضة والتقدم والتطور، أما إذا حاولنا القيام بذلك، فإنه كما يقول مالك بن نبي سيقودنا إلى صعوبة أكثر تعقيدا مما هو عليه المصطلح الآن، إلا أن المظهر الذي تشترك فيه هذه المصطلحات كلها، هي ارتباطها بالإنسان، ومن ثم كانت الحضارة لا تخرج عما يسميه، ابن نبي "بعلم الإنسان"، لأن: الشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة، وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء[3]. إنه الإنسان أينما كان، وحيثما وجد، وابن نبي وإن كانت كل كتاباته لا تخلو واحدة

---

[1] - ENCYCLOPEDIE KLIO larousse Multimedia.

[2] ـــ ابن خلدون، المقدمة، الدار؛ ت، ن، تونس، وم، و،ك، الجزائر،1984م،ج1، ص223.

[3] ـــ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة، عبد الصبور شاهين،مكتبة دار العروبة،القاهرة، 196، ج1، ص32.

منها من التطرق إلى الحضارة، فإنه دائما يربطها أيضا بالوظيفة التي تؤديها وترتبط بها، ومن ثم نجده يقول، يجب أن تتحدد الحضارة: من وجهة نظر وظيفية: فهي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطوار وجوده، منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه[1].

إن الحضارة بهذه المظاهر، ما هي إلا تجسيد لمصلحة إنسانية مشتركة، وكانت البشرية على ضوء هذه المصلحة مطالبة بالتخلي عن صراعاتها وخلافاتها، وعن أنانيتها، وتعمل في وحدة واحدة من أجل هدفها المشترك، وكلما استطاعت تحقيق ذلك، اقتربت من الكمال الإنساني.

1 ـ التسامح الديني ودوره في البناء الحضاري:

إن التسامح الديني يلعب دورا أساسيا في رقي الأمم وتطورها سواء كان على مستوى أهل الديانة الواحدة، أو بينهم وبين أهل الديانات الأخرى، وفي ذلك يقدم لنا مالك بن نبي صورا مماثلة من التاريخ الإسلامي الحافل في التسامح بين أبنائه، وبينهم وبين غيرهم من الديانات الأخرى، ومن صور ذلك التسامح التي كانت سائدة بين أبناء الأمة الإسلامية أيام ازدهار الحضارة الإسلامية، حينما كان الإقناع والاقتناع يتمان بالحجة، هو المثال الحي الذي يقدمه على ما فعله ابن الراوندي في أوائل القرن الرابع الهجري عندما انتقص من قيمة وشخصية الرسول ﷺ، ووصفه ببعض الأوصاف التي لا ترقى إلى شخصيته ومكانته[2]، ورغم ذلك فإن المسلمين وعلى كل المستويات، ساسة، أو مفكرين، أو عامة الأمة لم يعقدوا له محاكمة و لم

---

[1] ـ مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر،ص 46 ـ 47.

[2] ـ ابن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر الجزائر، دمشق، ط1، 1412هـ، 1991م، ص 186.

يهدروا دمه، وذلك دليلا على البعد الحضاري التسامحي الذي تعلموه من دينهم، وحاولوا الرد عليه بالحجة الفكرية والعقلية، أليست هذه أسمى صور التسامح؟ المبنية على الحجة والدليل، ألم نشاهد اليوم الكثير من المسلمين يكفرون بعضهم بعضا حتى وإن لم يجاهر الطرف الآخر بخروجه عن الدين؟ ويحاربون بعضهم بكل الوسائل المتوفرة، ألا يمكن اعتبار هذه الصور مظاهر للتخلف والانحطاط؟ ألا تعبر عن جهل بالإسلام، وبمبادئه السمحة؟

وانطلاقا من هذا المبدأ كان ابن نبي، يحث: المربين في البلاد العربية والإسلامية أن يعلموا الشبيبة كيف تستطيع أن تكشف طريقا تتصدر به موكب الإنسانية[1]، وتبتعد عن كل السلوكات التي تستند إلى التعصب الذي يكون عائقا في وجه كل بناء حضاري، وكان سند ابن نبي في ذلك هو شعوره العميق بما تحس به الشعوب وما تقرره الأديان، ومن ثم أليس من واجبنا أن نسائل أنفسنا بهذه الأسئلة: ألسنا أولى من غيرنا بأن يكون عندنا هذا الحس الحضاري الذي قال به ابن نبي؟ ألم نكن أمة لنا امتداد في التاريخ؟ وكانت المسميات تسمى بأسمائنا؟ ألسنا أمة لنا دين يحثنا على الإحسان والتسامح والمحبة بين أبناء البشر؟ أم أن ذلك كان زمان الوحي والمعجزة؟ ألم يستمد ابن نبي مظاهر تفكيره من دينه وتاريخه الذي يحترم الإنسانية جمعاء ويكرمها؟ ألم يقل القرآن الكريم ــ دين ابن نبي ــ :﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾[2]؟ ألا يدل هذا المعنى القرآني على أن الإنسانية جمعاء ــ دون استثناء ــ هي من أصل واحد؟ ومن طبيعة واحدة؟

وإذا التزمنا بهذه القيم، وعلى كل المستويات، فإنه يمكننا الوصول إلى ما كان ابن نبي يحث الشبيبة العربية الإسلامية على الالتزام والتمسك به، حين قال: ولو

---

[1] – مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين،دار الفكر،دمشق، ط4، 1984، ص118.

[2] ــ الإسراء، الآية70.

أتيح لهذه الشبيبة [العربية الإسلامية] أن تعتنق مشكلة تكامل الإنسانية اعتناقا تمنحها معه كل ذكائها وكل قلبها، حتى تجعل منها رسالتها، فسوف تحتل مقام الصدارة في الزحف نحو اتجاه جديد، نحو تقرير مصائر الإنسانية، ولعلها بذلك تمحو الشرور التي تفشت اليوم في حنايا أنفسنا، ولعلها أيضا تمحو بعض الشوائب والمذاهب التي خامرت عقولنا[1].

وللخروج من هذه المظاهر اللاإنسانية واللادينية، كان ابن نبي يحث على التسامح بين الأفراد في الدين الواحد، وكذلك أيضا بين الأديان والتعاون بين بعضها البعض، لأن هناك تشابه بينها، والقرآن الكريم يؤكد ذلك، وفي هذا المعنى يقول ابن نبي: فإن القرآن يؤكد مستعلنا صلته بالكتاب المقدس، فهو يطلب دائما مكانه في الدورة التوحيدية، وهو بهذا وبذاك يثبت ـ باعتداد ـ التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة، ويلفت إليها النبي نفسه كلما جدت مناسبة، وهاك فيما نذكر آية تنص بخاصة على تلك القرابة: **﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[يونس: 37][2]، ولكن ليس ذلك بالنسبة للديانات السماوية كاليهودية والمسيحية فحسب، بل حتى بين المسلمين والهندوسيين، وأن أمر المزاوجة، والتسامح بينهما: لن يكون محاولة للتلفيق والاصطناع، بل لابد من ميثاق أخلاقي بينهما ليتخذا وجهة دولية واحدة، وليس في هذا تجديد للمحاولة العابثة التي قام به الإمبراطور أكبر الذي أراد في القرن السادس عشر أن يؤسس إمبراطورية في الهند على أساس تلفيق ووحدة إسلامية هندوسية[3]، وإنما يجب أن يكون التعاون بينهما

---

[1] ـ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص 118.

[2] ـ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ص240.

[3] ـ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص105.

يصب في إطار الوحدة الدينية العالمية المبنية على التسامح بين الأديان والشعوب، ولذلك فإن: مهمة الإنسانية اليوم خاضعة في عمومها لقضية السلام، التي تفرض نفسها مقدما على كل مشروع اجتماعي أو روحي في العالم الراهن، فمشكلة السلام قد أصبحت هي النقطة التي تلتقي عندها خيوط التاريخ جميعا[1]، وكان ابن نبي انطلاقا من هذا المبدأ يرى أن الشعوب المتأخرة، وخصوصا الإفريقية والعربية والإسلامية هي أولى من غيرها بالالتزام بهذا المبدأ، وهو مبدأ السلام.

وقد قدم ابن نبي بعض النماذج التسامحية التي كانت تربط الإنسان المسلم بغيره من أهل الديانات الأخرى، وخصوصا الذين كانت لهم مواقف منافية للإسلام وللحضارة الإسلامية، مثل ذلك اليهودي الذي انتقد القرآن الكريم نقدا غير نزيه، ومع ذلك فإن المسلمين لم يقفوا في وجهه بعنف وقسوة، أو هدر لدمه، وإنما حاولوا إفحامه بردودهم على أقواله بالحجة والبرهان، وهو الموقف الذي وقفه ابن حزم في الرد عليه في رسالة ابن النجريلة المشهورة[2]. فالإسلام ما كان يعرف الإكراه كوسيلة قمع للفكر ولحرية الرأي، لأن معتنقه لا يمتثل له امتثالا أعمى، وإنما هو يفهم حقيقته ومقصده ومغزاه.

ونظرا لما سبق كان ابن نبي، يرى أيضا، أن للحضارة بعدا دينيا على اعتبار أن الدين يؤدي إلى تركيب مجموعة من القيم الاجتماعية التي تعطي للدين بعده الاجتماعي، والأخلاقي، لأن الدين عندما يكون في مرحلة نموه وتطوره الصحيح يولد الفضائل الإنسانية، التي تنبذ الفردية والأنانية، وهي القيم التي تكون هدف الحضارة الصحيحة ذاتها، ذلك أنه عندما يتدخل "المركب الديني" فإنه يبث في العناصر المؤدية إلى البناء الحضاري الحيوية والنشاط والحركة، وبها يخرج الإنسان

---

[1] ــ المصدر نفسه، ص 126.

[2] ــ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص186.

من حالة الطبيعة ويندفع بطاقة حيوية بعد أن تكون الفكرة الدينية قد ضبطت غرائزه الفطرية والحيوية الحيوانية الكامنة في طبيعته وأخضعتها لقانون أخلاقي سام ودقيق للفرد والمجتمع، وهنا تصمت "الغريزة" ويخضع الكل لقانون الروح الذي يولد النهضة والتقدم والحضارة[1]، وهذا إذا كان واضحا على مستوى الحضارة التي نشأت في ظل الإسلام، فإنها أيضا هي نفسها التي ولدت الحضارة الغربية، وفي ذلك يشير ابن نبي إلى الحقيقة التي توصل إليها "جيزو" الذي كان صاحب الكلمة المسموعة في الحضارة الأوربية، حين اعتبر أن هذه الأخيرة، هي من عمل الفكرة المسيحية، حين قال: تلكم هي السمة العظيمة الأصلية للحضارة الأوربية، منذ أن تطورت تحت تأثير الإنجيل، تأثيره الظاهر والخفي ...[2].

ومن هذا المعنى فلا تعارض بين الحضارة والدين، ومن ثم يقول ابن نبي: فدور الدين الاجتماعي منحصر في أنه يقوم بتركيب يهدف إلى تشكيل قيم، تمر من الحالة الطبيعية إلى وضع نفسي زمني ينطبق على مرحلة معينة لحضارة، وهذا التشكيل يجعل من الإنسان العضوي وحدة اجتماعية، ويجعل من الوقت وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل، ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإنسان في صورة استهلاك بسيط، مجهزا مكيفا تكييفا فنيا، يسد حاجات للحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لظروف عملية الإنتاج[3].

ولهذا كان من مظاهر الدين الإسلامي، تعاليمه الأخلاقية، فهو حين يدعو معتنقيه بالتميز عن غيرهم فإن ذلك يكون على أساس أخلاقي لا غير، إذ جاء في

---

1 ـ فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1981م، ص414.

2 ـ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص73.

3 ـ مالك بن نبي،وجهة العالم الإسلامي،ترجمة عبد الصبور شاهين،دار الفكر،الجزائر،ط5،ص32.

قوله تعالى:﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾[1]، فالأخلاق الدينية التوحيدية، تهدف إلى تحقيق سعادة الإنسان، بقدر ما تهدف إلى رعاية مصالح الآخرين، وهي كما يقول مالك بن نبي: تدفع الفرد إلى أن ينشد دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته[2]، وهذه الغائية هي التي يجب أن تميز كيان الإنسان العربي المسلم، وتميز في الوقت نفسه أفعاله وأعماله.

إنه لكي يؤدي الدين دوره الحضاري، ويكون له بعدا إنسانيا، ينبغي أن يبتعد الفرد عن كل تعصب، ومنافاة للآخر، لأن ذلك يضر بالآخر وبدينه، كما يضر بالفرد ذاته، ويبتعد به عن الحضارة وعن قيمها، ولعل ذلك ما تحاول الحضارة الأوربية في بعض جوانبها حمله، وذلك ما أكدته "هونكه" حين قالت: إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد كل البعد عن الإنصاف والعدالة، والتاريخ وقتذاك كان يملى ويصنع، والمملي لم يكن الضمير بل التعصب الأعمى. إن مثل هذا الوضع كان مفهوما في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائديا، ومما يؤسف له حقا أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الاعتراف للعربي بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية[3]، كما آن لنا في هذا الصدد أن نقول إذا كان هذا أيضا هو مظهر ـــ بعض المسلمين ـــ فإنه يكون خطرا عليهم وعلى الإسلام، لذلك يجب أن يعتمدوا على عناصر الدين الحقة التي ترفض هذه المظاهر كلها، لأن تاريخ اضطهاد الأديان لا يوحي لنا عبر الأزمنة والعصور، بأن تلك الاضطهادات استطاعت أن تقضي على دين من تلك الأديان.

---

1 ـــ آل عمران، 110.

2 ـــ مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ص248.

3 ـــ زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص، ب، ج.

2 ـ التعاون الثقافي ودوره في البناء الحضاري:

كان للمبدأ الذي تبناه المسلمون في بداية تأسيسهم لحضارتهم والمتمثل في الإطلاع على حضارة وثقافة الآخر[1]، رغم اختلاف الاعتقادات والعادات والتقاليد، أثره الواضح في الاستفادة من تلك المواريث الثقافية والحضارية للأمم الأخرى وبنى حضارة إسلامية متميزة، بتلاقحها مع تلك الثقافات، ولذلك كان مالك بن نبي، يحث الجزائريين، على تمثل هذا الطريقة التي: تنير أمامها السبيل تجربتها الخاصة، وتجربة الآخرين حتى لا تعمد إلى اختيار مجحف بقيمها الثقافية الموروثة[2]، ومن هنا يتعين على الجزائر كما يقول: أثناء قيامها باختيارها أن تأخذ بعين الاعتبار واقعا جديدا يتمثل في معرفة أن كل قيمة ثقافية محددة في إطار وطني، قد أصبحت تمتزج من هنا فصاعدا في تيار ثقافة عالمية شاملة[3]، ومن هذه الرؤية يرى أن بناء أية حضارة لا يمكن أن يكون إلا على أساس الثقافة، لأن الثقافة هي: المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، كما أنها مجموع من القواعد الأخلاقية والجمالية[4] التي تربط سلوك الفرد بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، أو هي: كل ما يعطي الحضارة سمتها الخاصة ويحدد قطبيها: من عقلية ابن خلدون، وروحانية الغزالي، أو عقلية "ديكارت" وعقلية "جاك دارك"، هذا هو معنى الثقافة في

---

[1] ـ كان المسلمون في بداية تأسيسهم لحضارتهم التي لا زالت مظاهرها ماثلة للعيان، منفتحين على الآخر وعلى ثقافته، وما الدور الذي لعبه المسلمون الأوائل أمثال: الفارابي، وابن سينا، والماوردي، وابن رشد.. وغيرهم من فلاسفة الإسلام، في نقل التراث اليوناني ـ طبعا بعد صبغه بصبغة إسلامية إلا دليلا على ذلك.

[2] ـ مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص139.

[3] ـ المصدر نفسه، ص142.

[4] ـ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص 35.

التاريخ[1]، ومن هنا تعددت الثقافات، ولكن بتعاونها تنشأ الحضارة وتبنى، فهي الجسر الذي تمر به كل المجتمعات الإنسانية نحو الرقي والتقدم، ولذلك كما يضيف: هناك مؤرخون يرون أن نهضة أوربا في القرن السادس عشر، تعد تركيبا حققه الزمن والأحداث على الحدود بين الثقافة الإسلامية والعالم المسيحي[2]، ومن ثمة فهو يؤكد على أن الثقافة وازدهارها من بين العناصر الأساسية الدالة على الحضارة، وعلى تقدمها وتطورها، أو انحطاطها وضعفها، إذ لا يمكن أن تبنى حضارة من دون ثقافة، ولذلك كان يرى أن ما شعر به ابن خلدون في عصره من هذه العلاقة التلازمية هو دليل على المستوى الثقافي والحضاري الذي كان عليه المغرب العربي في وقته، حيث قال: فمجال ثقافة ما إنما هو مدى حضارة، ومؤلف المقدمة [ابن خلدون] شعر به بحدة كبيرة وبكل مأساوية، في ذلك العصر الذي انتهت به الحضارة، إذ حيثما شهد بثاقب نظره الأفول الثقافي في المغرب، كان يعي بحسرة وحنين تدني الثقافة في الشرق الأوسط الإسلامي[3].

إن الحضارة الغربية قد استطاعت أن تنشر إشعاعها على كل بقاع العالم، وذلك بفضل توسعها الاستعماري، ومن جملة ما نشره الاستعمار من نظام أفكار حسب ابن نبي هي الأفكار التي كانت معادية له هو نفسه، حيث يقول أن الحضارة امتدت إلى: ميدان النشاط المعادي للاستعمار. ونحن نجد ذلك أولا في القوة الفكرية التي أمدت هذا النشاط، فلقد اقتبست الشعوب المستعمرة إلى جانب عناصر الفلسفات

---

[1] ـــ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص77.

[2] ـــ المصدر نفسه، ص97.

[3] ـــ المصدر نفسه، ص 128.

الفكرية التي استمدتها من ثقافتها الخاصة، اقتبست علاوة على ذلك من ثقافة أوربا ومن تجربتها الاجتماعية والسياسية عناصر أخرى لا يمكن إغفالها[1].

إن مالك بن نبي يرى أن الإنسان اليوم في القرن العشرين، القرن الذي عاش فيه، أصبح يعيش مشكلات إنسانية مشتركة، ولذلك ينبغي على المفكر المسلم اليوم أن يساهم في حل هذه المشكلات الإنسانية العامة، وفي ذلك قال: فالمثقف المسلم نفسه ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة، حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي[2]، فالإنسان المسلم يمكن أن يؤدي هذا الدور، وهو المساهمة في حل تلك المشكلات سواء بفهمه للحضارة المعاصرة وتكييفها مع متطلباته ومتطلبات الإنسانية، أو إعادة صياغة عناصر وأدوات حضارته وتراثه لتتلاءم مع العصر الراهن، وبذلك يحدث تواصلا واستمرارية مع ذاته، ومع طموحه وتزيل عنه صفة الوحدانية والتوحش المنافي لكل ثقافة.

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة في بعدها الفكري لم تعد تقتصر على مجتمع معين، وإنما أصبحت من اهتمامات وأوليات كل البشر حيثما كانوا، وحيثما وجدوا، وأن هذا المستوى من التعاون الحضاري لا يعني تعاونا في الأشياء التي تلي منتجات الحضارة، وإنما يعني التعاون في الأفكار التي تؤسسها، أو بعبارة أخرى في فاعلية الأفكار كأداة وكمنهج عملي، تحدد أهدافها ووظائفها وغاياتها، وصالحة لأن تحقق تلك الغاية التي بنيت على أساسها، وليست تلك الأفكار المجردة من الفاعلية، وهذا يتطلب ضمنيا تعاونا أخلاقيا، وفي ذلك يقول ابن نبي أن: غاندي لم يكن يتصرف في صاروخ كوني، أعني في شيء ذي مستوى عالمي، وإنما كان يملك

---

1 ــ مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، ترجمة، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط3، 1413هـ، 1992م، ص274.

2 ــ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص116.

ضميرا تراحب حتى وسع العالم[1]، على هذا المستوى فإن عظمة أية أمة، لا يمكن أن تجد لوجودها مكانا إلا إذا كانت لها أفكار تتبناها وتدافع عنها، وتستطيع أن تعطيها هيبة، ومن ثم يؤكد ابن نبي فهيبة الأمة قد تكفلها لها أحيانا الأفكار، إذا ما تناغمت هذه الأفكار مع المرحلة التي تجتازها الإنسانية[2]. وأن: المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه، ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولن يمكن لمجتمع في عهد التشييد، أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج[3].

فمالك بن نبي يعارض كل من يعتقد أن الحضارة هي ذلك الجانب المادي كالصاروخ، والطائرة، والباخرة، والبندقية، وإنما الحضارة هي ذلك الجانب الفكري، إنها منظومة الأفكار التي تستطيع أن تؤسس للجانبين المادي والروحي معا، وكل من تنقصه هذه المنظومة يعتبر بالنسبة لغيره متأخرا ومتخلفا، فالفكرة هي المقياس بين التقدم والتطور والتأخر والانحطاط، وهذه عكس نظرة الإنسان المسلم المعاصرة الخاطئة المبنية على الأشياء والوسائل، حيث يقول ابن نبي إن الإنسان المسلم: يفسر أصل دائه تفسيرا خاطئا حتى يعزوه إلى نقص أشياء كثيرة في حياته، على حين أن ما ينقصه إنما هو "الأفكار"[4]، ومن ذلك يستنتج، قائلا: سنظل نكرر ونلح في تكرارنا أن أزمة العالم الإسلامي منذ زمن طويل لم تكن أزمة في الوسائل، وإنما في الأفكار، وما لم يدرك هذا العالم تلك الحقيقة إدراكا واضحا،

---

[1] ـــ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص117.

[2] ـــ المصدر نفسه، ص117.

[3] ـــ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص198.

[4] ـــ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص117.

فسيظل داء الشبيبة العربية الإسلامية عضالا، بسبب تخلفها عن ركب العالم المتقدم[1].

فالفكرة هي أساس الوجود، فكما يقول "ديكارت": أنا أفكر إذن أنا موجود، وليست المادة أو وسيلتها هي أساس الوجود.

إن الحضارة وفقا للنظرة السابقة: لا يمكن الحصول عليها إلا بالإنسان المتعقل لفعله، المدرك لوقته، والمتفاعل مع التراب، والمتناغم مع التراث، والمتعلق بالمعارف العالمية على السواء، دون أن يتحول إلى زبون يستهلك ولا ينتج[2]، لأن الحياة الإنسانية لا تعني مجتمعا بعينه، وإنما تعني كل المجتمعات البشرية المقسمة إلى وحدات، وكل وحدة منها يجب أن تساهم في بناء الحضارة.

والتعاون الفكري والحضاري بين الشعوب، أدركته الإنسانية المعاصرة من خلال ما توصلت إليه من حضارة، ولعل إنشاء منظمة اليونسكو يدخل في إطار التوحيد بين الثقافات والأفكار والحضارات الإنسانية ليستفيد بها الإنسان حيثما وجد، كما تدخل في إطار خلق نوع من التسامح والتكاتف بين كل الثقافات والحضارات، لأنها تدخل أيضا في إطار عمومية الإنسانية، ومن هنا: فالثقافة الحضارية ينبغي أن تعطي لفكرة السلام شخصيتها الحقيقية، بأن تضعها منذ الآن تحت ضمان المبادئ[3].ومن مظاهر العالمية المشتركة بين الشعوب حسب ابن نبي في القرن العشرين هي تكوّن الضمير الإنساني الواحد، وفي ذلك يقول: غير أن الضمير الإنساني في القرن العشرين إنما يتكون على ضوء الحوادث العالمية التي لا يستطيع أن يتخلص من تبعاتها، فإن مصير أي جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها

---

1 ـــ المصدر نفسه، ص117.

2 ـــ عبد القادر بوعرفة، الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر 2001، ص8.

3 ـــ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص128.

الجغرافية، ولأن: الثقافة أصبحت تتحدد أخلاقيا وتاريخيا داخل تخطيط عالمي، لأن المنابع التي تستقي منها أفكارها ومشاعرها، والقضايا التي سوف تتبناها ...لا تستطيع هذه كلها أن تجتمع في أرض الوطن[1]، بل إنها تتحدد في إطار إرادة الحياة الاجتماعية المشتركة بين أبناء البشر، لأنها هي التعبير الحي لكل وجود إنساني فاعل.

3 ـ الدين وتمجيد العلم:

يعتبر مالك بن نبي أن من بين ما أنتجته الحضارة هو "العلم"وهو بدوره الذي أنتج الحضارة، وقد حاول ضبط مفهوم العلم، من خلال تحديده له بقوله، هو: مجموعة المعلومات ومجموعة الطرق المؤدية لاكتسابها، ولكن هذا التعريف من وجهة نظره غير كامل لأنه لا يشير إلى تطور التاريخ العلمي الذي يلعب دورا أساسيا في بناء العلم، ولكن ذلك منوط بمجموعة من الشروط النفسية والاجتماعية تؤثر إيجابا وسلبا على التطور العلمي، ويقدم مثالا على ذلك، غاليلي فقال: حين أعلن نظرية دوران الأرض، لم تواجهه معارضة علمية، بل معارضة كلامية، نعني معارضة عقائدية، ولم تدن غاليلي أكاديمية العلوم، بل أدانته محكمة دينية تحكمت في أمره باسم العقيدة، إن ما أدانه هو بالتالي مجموعة عوامل القمع والحرمان الموجودة في نفسية المجتمع الذي حكم عليه بالإعدام[2]، ولذلك فإن العلم في اعتقاده، مجرد عن هذه العوامل والنفسيات، ولا يمكن أن يتطور، إذ لتطوير المجتمع علميا يجب أن نطوره اجتماعيا، حتى يصبح قادرا على تقبل العلم ونظرياته ومساهما في تطويره، ولعل الحضارة في بعض الأحيان هي التي خلقت هذا العداء للعلم وليس العلم لنفسه، إذا يجب أن نميز بين العلم، وبين الشروط النفسية والاجتماعية المرتبطة به، لأن عائقنا اليوم في دول العالم المتأخر ليس انعدام

---

[1] ـ المصدر نفسه، ص121.

[2] ـ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص185.

النظريات والقوانين والوسائل العلمية، وإنما انعدام الشروط النفسية والاجتماعية المرتبطة بتطور العلم.

حاول ابن نبي تلمس الطرق المختلفة والتي يمكن من خلالها إيجاد الحلول للإشكالية التي كثيرا ما دارت حولها جدالات في الفكر العربي الإسلامي والمتمثلة فيما يلي: كيف يمكن لنا النهوض بمجتمعاتنا، هل بالرجوع إلى أصالتنا وتراثنا ورفض كل ما وصلت إليه الأمم الأخرى؟ أم يكون ذلك بالاعتماد على الأمم والشعوب الأخرى، بما وصلت إليه، وما يمكن أن تقدمه لنا؟ أم يجب أن نميز في ذلك الاعتماد بين ما يوافقنا وما لا يوافقنا؟ بين ما يخدم مجتمعاتنا وما لا يخدمها؟ وهل بالضرورة ما يخدم المجتمعات الأخرى يخدمنا؟ والذي كان فيه واضحا، هو إدراكه المستوى الحضاري الذي توجد عليه مجتمعاتنا، والمستوى الذي توجد عليها المجتمعات الأخرى، وأدرك الهوة بينهما، لذلك رأى أنه من فائدتنا وفائدة مجتمعاتنا، أن نعتمد على حضارة الآخر، وأن نأخذ ما يتوافق وأصالتنا وثقافتنا، ولعل هذه الوجهة أيضا كانت هاجس أغلب المفكرين العرب المحدثين والمعاصرين، الذين حاولوا بكل الطرق إيجاد مسوغات للتوفيق بين الاقتباس من الحضارة الغربية، والواقع المتميز للأمة العربية الإسلامية.

كما أن الإسلام ذاته: يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير[1]، ولا يعادي أي علم من العلوم، فهو يعظم العلم، ومحبي العلم، ويدعو إلى احترام حامليه، وآياته الدالة على هذا كثيرة _ لا يتسع المجال هنا لذكرها _ فالعلوم: كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف منها في عهد مدنيته الشرقية والغربية

---

[1] _ عمار طالبي، ابن باديس ...، ج2، ص 10.

حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم[1]، فيجب على العرب المسلمين اليوم، التحرر من هذه العقد التي كونتها فيهم الحضارة المعاصرة، وينطلقوا في بناء حضارتهم الجديدة انطلاقا من المفهوم الإسلامي السليم للحضارة وللإنسانية، لمواصلة رسالتهم الخالدة في التاريخ.

4 ــ الحضارة ونشأة الاستعمار:

يربط ابن نبي، نشوء الاستعمار بالحضارة، ولذلك لم يكن عنده الاستعمار مجرد ظاهرة سياسية عابرة، بل إنه ظاهرة حضارية ترتبط بمراحل التطور الإنساني، ومظاهره، سواء كانت أخلاقية، أو سياسية، أو فكرية، أو علمية، أو اقتصادية، وقد يكون هذا الشعور والربط نابعا من الظروف الخاصة التي عايشاها، تحت نير الاستعمار الفرنسي، وقد كان ابن نبي يرى في الاستعمار جانبين: جانب خيري، وجانب شرير، وتمثل جانبه الخيري أو الإيجابي هو أنه أيقظنا من سباتنا، وفي ذلك قال عنه، أنه: أخذ من حريتنا وسيادتنا وكرامتنا، وكتبنا المنسية، وجواهر عروشنا، وأرائكنا الناعمة، التي كنا نود أن لو بقينا عليها نائمين. ولكن إذا كان هذا هو الواقع الاستعماري فيجب أن نعترف بأنه أيقظ الشعب الذي استسلم لنوم عميق[2]. أما في جانبه الشرير أو السلبي، فإنه استطاع أن يسيطر على عواطفها وهواجسها، بكلمته الاستعمارية نفسها، ومن ثم فهو يشبهه، بأنه شيطان، لأنه يحاول تجميد كل القوى التي تحاول التخلص منه، وذلك ما عبر عنه ابن نبي حين قال: فالاستعمار يدخل المسرح حتى يعيد إلى جوه صمتا يغار ويحرص على بقائه كي

---

1 ــ المصدر نفسه، ج3، ص177 ــ 178.

2 ــ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي، مكتبة دار العروبة، القاهرة، مصر، ط2، 1961م، ص226.

يطيب للنائمين نومهم[1]. ويؤكد نفس الوصف بقوله : إن المعامل الاستعماري في الواقع يخدع الضعفاء، ويخلق في نفوسهم رهبة ووهما، ويشلهم عن مواجهته بكل قوة، وأن هذا الوهم ليتعدى أثره إلى المستعمرين أنفسهم فيغريهم بالشعوب الضعيفة، ويزين لهم احتيالهم إذ يحاولون إطفاء نور النهار على الشعوب المتيقظة...لترجع تلك الشعوب إلى العبودية والنوم [2].

إن المشكلة الأساسية لكل الشعوب البشرية هي بلا شك مشكلة حضارية، ولكن لا يمكن لأي شعب كما يقول مالك بن نبي: أن يفهم أو يحل مشكلته [الحضارية] ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها[3].

إن مالك بن نبي لا ينظر إلى أوربا باعتبارها تمثل الحضارة وأن لها دائما وجهة استعمارية، وتستخدم وسائل تلك الحضارة للسيطرة على غيرها من الشعوب والأمم، وإنما حضارتها تنطوي ـــ كما أشرنا ـــ على جانبين: جانب خيري، وجانب شرير، وهناك صراع بينهما، وفي ذلك يقول ابن نبي: وإذن فإن لدى أوربا عبقريتها الخيرة وعبقريتها الشريرة، فإذا ظهر على المسرح مركب القوة المتمثل في النزعة الإمبراطورية وفي الاستعمار والعنصرية، فإن عبقريتها الشريرة هي التي تتكلم[4]، ويحث ابن نبي أوربا إذا أرادت أن تتخلص من طبيعتها الشريرة، وتمارس الحضارة الحقيقية التي صحبها الوعي الإنساني المؤسس على النظر إلى أن

---

[1] ـــ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، الجزائر، دمشق، ط3، 1408 هـــ 1988م، ص15.

[2] ـــ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص228.

[3] ـــ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص20.

[4] ـــ مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، ص276.

الحضارة عالمية والإنسان هو محورها الأساسي حيثما وجد، وبذلك نصل إلى التفسير الحقيقي للحضارة، حيث يقول: فلقد حققت [أوربا] انتقالا وتحولا في الكون الذي حققت فيه حضارتها منذ قرنين من الزمان، وعليها أن تكمل عملها في كونها الداخلي بإتمامها لتحولها الخاص بها، ولاشك في أن إتمامها عملها إنما هو من اختصاص عبقريتها الخيرة التي تتيح لها، أن تجد في أعماق ضميرها مع الفكرة الكاملة عن الإنسان معنى فلسفة إنسانية تناسب العهد العالمي[1].

وأهم ما نختم به هذا العنصر هو الحقيقة العلمية الحية التي توصل إليها ابن نبي، والتي لا زالت ماثلة في عقولنا إلى اليوم، وهي كما قال: والحق أننا لم ندرس بعدُ الاستعمار دراسة علمية، كما درسنا هو، حتى أصبح يتصرف في بعض مواقفنا الوطنية، وحتى الدينية، من حيث نشعر أو لا نشعر[2]. لأن الاستعمار ذاته لم يتولد إلا من تقدم علمي حضاري، ولم يكن نزوة شخصية عابرة مارسها أشخاص معينون.

5 ــ البعد الإنساني في الحضارة:

إن الحضارة الإنسانية التي فهمها ابن نبي ودعا إليها، هي الحضارة التي يحث عليها الإسلام ويدعو فيها إلى العمل من أجل الوصول إليها، لتغيير واقع الفرد في أي مجتمع مهما كان معتقده، فالإسلام، لم يدع المسلمين إلى التغيير والبناء الحضاري، فحسب، وإنما دعا كل الأمم والشعوب إلى ذلك ــ كما سبقت الإشارة ــ وذلك بناء على قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾**[3]. إذ لا يفهم من معنى هاته الآية شخص ما، بمفرده، ذكرا كان أم أنثى، مؤمنا كان أم كافرا، وإنما ينصب معناها على جميع البشر، مهما كانت ألوانهم

---

[1] ــ المصدر نفسه، ص276، 277.

[2] ــ مالك بن نبي، شروط النهضة، ص233.

[3] ــ الرعد، الآية 11.

وأجناسهم وخصائصهم البشرية، سواء كانوا قوما، أو مجتمعا معينا، أو أمة[1]، ومن هنا فإن إعادة بناء الحضارة من جديد، حسب ابن نبي، ينبغي أن يكون: في أي مشروع يستهدف بإعادة تنظيم الطاقة، بغية إعادة بناء شبكة من العلاقات الاجتماعية القوية[2] .بمعنى: بناء الحضارة على حركية تلك الطاقة، أو القوة الكامنة في الإنسان، التي لها فاعلية على تغيير ذاتية الفرد من الداخل، من جهة، والتي لها كذلك فاعلية في تغيير علاقات ذلك الفرد مع الآخرين، أي بالمجتمع، وبواسطة هذه الحركية والتغيير تكسب الجماعة البشرية صفتها الإنسانية.ومن ثم، فإن شبكة العلاقات الحضارية، التي ستنشأ من جديد ستكون مؤسسة على قاعدتين: الأولى، تتمثل في سنة التغير الإلهي المستمدة من الآية المشار إليها. والثانية تتمثل في تأصيل الذات لذاتها، فكريا واجتماعيا ونفسيا، وهي مستمدة من الأثر الذي يقرر أنه: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[3].

وهكذا يبدو أن الطابع العام للحضارة التي يتصورها ابن نبي، هو طابع غربي، تأثر به من كتابات توينبي. ذلك أن توينبي، كان قد تحدث عن مستقبل الحضارة الغربية، وعن التحديات التي تواجهها، وعن إمكانية إجراء عملية لإعادة بنائها وتجديدها، حتى أنه تمنى أن لا تغرق الحضارة الغربية، في محاولة "إنقاذ بالسيف"، وأنه يمكن أن تصل إلى نظام عالمي، يقرب من ذلك الميثاق الذي دعا إليه، دون جدوى، بعض المسؤولين والفلاسفة الهلينيين خلال عصر الاضطرابات في اليونان، إذ أن ما نبحث عنه في الحضارة الغربية هو الموافقة الحرة للشعوب الحرة على

---

[1] ـــ جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم، تقديم مالك بن نبي، المطبعة العربية، غرداية الجزائر، ص38.

[2] ـــ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص145.

[3] ـــ المصدر نفسه، ص101.

العيش في وحدة، وأن نصنع دون إكراه بالقوة التوافق والتنازل اللذين بدونهما لا يمكن لهذا المثل الأعلى أن يتحقق[1].

إن التطور الحضاري الذي مرت به الإنسانية، في رأي ابن نبي، هو الذي استطاع أن ينقل المجتمع الجليدي الأول إلى مجتمع جديد، وهو تطوره الحضاري، وهو قادر على أن يحول هذه الحضارة إلى طراز جديد هو الحضارة العالمية[2]، وهذا عينه ما تحاول الحضارة المعاصرة الآن، تمثله، باسم العولمة أي عالمية سيطرة الحضارة، وليس استفادة الإنسانية مما أنتجته، في رأينا، في مظاهرها المختلفة. معنى ذلك أن طبيعة الحضارة المعاصرة هي سعي مجتمع أو مجتمعات معينة للسيطرة على خيرات مجتمعات أخرى واستغلالها، رغم أن هذه الممارسة تتنافى وطبيعة الحضارة الإنسانية في ذاتها. فالحضارة الغربية المعاصرة استطاعت أن تنقل إشعاعها إلى أقاصي العالم المختلفة، وهي عكس الحضارات السابقة التي كانت تتمركز في مناطق معينة تزول بزوالها في تلك المنطقة، وبذلك لم تستطع تحقيق سعادة الإنسانية جمعاء. طالما أن الحضارة اليوم، تنتشر في كل مكان، ومع ذلك فقد: يتضاءل جنين هنا ولكنه ينضج وينمو هناك، فنحن نصادف دائما أشكالا من المقاصد تحتفظ بالحضارة في مستواها وفي حيويتها، حائلة بينها وبين الأفول، وتلك هي نتيجة توحيد المشكلة الإنسانية. ولقد حققت العبقرية الغربية هذا التوحيد حين أوصلت مقدرة الإنسان إلى المستوى العالمي[3].

ولهذا السبب فإن الحضارة الإنسانية التي ينشدها الإنسان باعتباره كذلك، في اعتقادنا تهدف إلى تطوير الآليات والوسائل التي يستخدمها، وتهدف في الوقت

---

[1] ـــ مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، ص273.

[2] ـــ مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية، ص273.

[3] ـــ المصدر نفسه، ص274.

نفسه إلى تطوير وعي الإنسان وروحه، وهذا هو الهدف الذي سعت إليه الإنسانية عبر مراحل تطورها الفكري في ظل صيرورة التاريخ، انطلاقا من المحاولات الأولى مرورا باليونان ووصولا إلى الحضارة العربية الإسلامية، التي جسدت هذا المفهوم الإنساني للحضارة، أي تحقيق إنسانية الإنسان، باعتباره كائنا طبيعيا خلقه الله، وكرمه عن باقي المخلوقات، بغض النظر عن الأدوات والوسائل التي يمتلكها ويستخدمها.

وفي هذا المعنى، يرتبط الإنسان، في المفهوم الحضاري، عند ابن نبي بالمكان والزمان. إلا أن مالك بن نبي، أضاف إلى ذلك، بأن عبر عنه، في "ثلاثية بناء الحضارة " التي وضعها، وهي: الإنسان، والتراب، والوقت. إن تحقيق هذا الهدف الطموح هو الذي يجعل للحضارة بعدا اجتماعيا وإنسانيا، يتجاوز الفردية الآنية أو الظرفية، وهو الهدف الذي يجب أن تسعى إليه كل الأمم المعاصرة في عملية بنائها الحضاري.

على هذا النحو، فإن بدء الحضارة، حسب ابن نبي، سواء قام بها الفرد أو المجتمع، تقتضي شعورا بالقلق والتوتر، الذي يولد الفعل الخلاق المبدع، والذي يتجاوز وضعه الراهن، لأن كل عمل إنساني لا يأتي من العدم أو من الفراغ، وإنما يأتي من المعاناة والكد والجد، وفي ذلك يقول ابن نبي: وطبيعي أنه ككل نمو لا بد له من تعب وقلق وألم، ذلك أنه يقع في المجتمع وفي الفرد أيضا شيء من التطاحن، بين قوات سلبية، تدعوه إلى السكون وهي دعوة تجد في طبيعة الإنسان عادة قبولا بسبب ميله الفطري إلى السهولة، وبين قوات إيجابية تدعوه إلى الكد والعمل وتحثه صعدا إلى الرقي، الذي هو رسالة الأمة وإلى الدفاع عن كيان المجتمع، وبصورة عامة إنما تدعوه إلى القيام بالواجبات، وهكذا نرى أن الصعوبات هي أكبر مبشر بالحياة الاجتماعية الصحيحة[1]، وفي اعتقادنا أن هذه هي ملامح الإنسان المعاصر،

---

[1] ـــ مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط5، 1991م، ص21.

الذي هو مؤهل بهذه الطبيعة إلى بناء الحضارة، فالاهتمام بها وبأدواتها أصبح ضرورة ملحة يجب أن تدخل في مجال وعيه.

إن المجهود الفكري الذي بنى عليه مالك بن نبي تصوره للحضارة ــ كما سبقت الإشارة ــ هو الإنسان، سواء في بعده الفردي، أو الاجتماعي أو الإنساني، وهذا البعد الأخير، هو الذي أولاه ابن نبي عناية خاصة، متأثرا في ذلك، على ما يبدو، بمبادئ دينه الإسلامي، بما أن الإسلام قد خص الإنسان بالتكريم، وحفظ له حقوقه، وأعطى له بعدا إنسانيا عاما، بمعنى أن الإسلام لم يميز بين المسلم وغيره في الإنسانية، على اعتبار أن الدين الإسلامي هو دين شامل للإنسانية جمعاء في كل توجهاته، ويتضح ذلك من خلال قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾**[1]، وهذا التكريم الإنساني في القرآن الكريم يفوق كل الصفات والمواصفات والحقوق التي يمكن أن تعطى للإنسان في أي تشريع بشري، وفي ذلك يقول مالك بن نبي: فنظرة النموذج الإسلامي[2] إلى الإنسان هي نظرة إلى التكريم الذي وضعه الله فيه، أي: نظرة إلى الجانب اللاهوتي فيه بينما النماذج الأخرى تمنحه النظرة إلى الجانب الناسوتي والجانب الاجتماعي، فالتقويم الإسلامي يضفي على الإنسان شيئا من القداسة ترفع قيمته فوق كل قيمة تعطيها له النماذج المدنية[3].

إن الإنسان في هذه الحالة، التكريمية الإلهية، مطالب بتقدير هذا التكريم، سواء لنفسه أو للآخرين، والمسلم هو أولى من غيره بهذا التقدير، لأن الله كرمه بتكريم

---

[1] ــ الإسراء، الآية، 70.

[2] ــ طبعا ابن نبي يحدد مجموعة من النماذج التي تحدثت عن الإنسان، وحاولت أن تعطيه بعدا إنسانيا من خلال مصطلح الديمقراطية، وهذه الأخيرة منذ ظهور مفهومها وممارستها عند اليونان، وتطورها في فرنسا، وفي إنكلترا، إلا أنها لم ترق إلى النموذج الإسلامي، مالك بن نبي، الديمقراطية في الإسلام، محاضرة، ألقيت سنة 1960م، ومنشورة ضمن كتابه القضايا الكبرى.

[3] ــ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص146.

خاص باعتباره مؤمنا، حيث قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، غير أن هذه العزة، وهذا التكريم، من وجهة نظر ابن نبي، هي: الموهوبة للمؤمن لا تعرضه للكبرياء، لأنها لا تعني المجد التالف المتصل بالأشياء المادية، بل هي العزة في سمو الأخلاق، وعلو الهمة[2]، وهذه الخصائص هي سمة مميزة للحضارة الإسلامية التي انصهرت في بوتقتها، كل الحضارات الإنسانية الأخرى.

وفي هذا الصدد، يذهب مالك بن نبي إلى أن الحضارة الإسلامية قد ذهبت مظاهرها وانهارت، عندما انهار بعدها الإنساني، أي عندما ابتعدت عن جوهرها وماهيتها المتعلقة بالاهتمام بالإنسان كقيمة في ذاته، وفي هذا المعنى، يقول: ويجب أن نلاحظ أن الحضارة الإسلامية انتهت منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان ... بصفة عامة أن الحضارة تنتهي عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان[3]. كما أنه يضيف أن حالة التمزق التي وصل إليها المجتمع الإسلامي لم تنشأ إلا عندما زال النشاط الاجتماعي المشترك بين أبنائه، وذلك ما كان قد أشار إليه الرسول ﷺ، حين قال: يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل، ومن قلة نحن يومئذ، قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وليترعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، فقال قائل، يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت[4]، ولعل هذه السمة من عدم التعاون الاجتماعي، من خلال زوال الروابط الاجتماعية، ستؤدي

---

[1] ـــ المنافقون، الآية 8.

[2] ـــ مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص147.

[3] ـــ المصدر نفسه، ص164.

[4] ـــ أبو داود، السنن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ج4، ص11.

إلى ضعف المجتمعات البشرية، وهي سمة إنسانية مشتركة تخص كل المجتمعات، حيثما كانوا، وفي أي عصر وجدوا.

وفي الأخير إننا نعتقد أن البعد الإنساني الذي أعطاه ابن نبي للحضارة ينبع من دعوته نفسها التي وإن كانت مصبوغة بصبغة إسلامية إلا أنها كانت عامة لا تتعلق بمجتمع معين، وإنما يمكن أن يتمثل أسسها أي مجتمع كان على وجه الأرض في بعده الإنساني.